شعراء شهدوا غزواً للعراق

- عزالدين عبدالحميد بن أبي الحديد المدائني البغدادي (ت٦٥٦هـ)
- مجد الدين أسعد بن إبراهيم النشابي الإربلي (ت٦٥٦هـ)
- شمس الدين محمد بن أحمد الكوفي الواعظ (ت ٦٧٥هـ)

د. عبدالله محمود طه المولى (*)

إن بلداً، كالعراق، ملأت حضارته وخبراته الآفاق، لابد أن يحتك بغيره من شعوب العالم المتاخمة والنائية، وأن يتعرض لغزوات واعتداءات الحاقدين، ولعل أعنف وأقسى هذه الغزوات هي الزحوف التترية المغولية[١] العاتية التي اندفعت من أواسط آسيا الصغرى لمحاولة القضاء على الأمة العربية الإسلامية، وإزالة معالم وجودها، وقد استطاعت هذه الجحافل أن تكتسح مدن العراق واحدة تلو الأخرى، حتى طرقت أبواب عاصمة الخلافة بغداد، واستباحتها في أيام قلائل سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، بعد أن زرعت بذور الخوف والرهبة في قلوب الناس، وأشاعت الخراب والدمار[٢]. والحقيقة، أن الشعراء آنذاك لم يكونوا غائبين عن ساحة الأحداث

(*) أستاذ مساعد - قسم اللغة العربية _ كلية الآداب / جامعة الموصل.

(١) كان يطلق عليهم التتر قبل عهد قائدهم جنكيزخان الذي استعمل اسم المغول بدل التتر، ينظر: دائرة المعارف الإسلامية ٤ / ٥٧٧.

(٢) ينظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت ١٩٦٥، ٢/ ٤٩٨. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، تحـ: مصطفى جواد، مط الفرات، بغداد ١٩٣١/ ٢٧، ٣٢٣، ٣٢٨. بشار عواد، بحثه: الغزو المغولي كما صوره ياقوت الحموي، مجلة الأقلام، ع ١٢، ١٩٦٥.

الجارية، فقد سجلوا تلك الوقائع الخطيرة في حياة المجتمع العراقي، مما جعل شعرهم وثيقة تاريخية مهمة لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة تلك الحقبة الزمنية الحرجة من تاريخ العراق، ويمكن أن نعد موقف الشعراء من هذا الحدث انعطافاً ملحوظاً في حركة الشعر العربي، فقد خرج الشعر من مجالاته ومحاوره التقليدية، واتسع ليعالج المواقف الآنية التي تمر بها الأمة آنذاك. إذ أخذ الشعراء على عاتقهم – في بداية الأمر- تخفيف نوازع الخوف الرهبة التي سيطرت على قلوب الناس، والتقليل من تأثير الدعاية الإعلامية المغولية التي وصلت حداً بعيداً من المبالغات[٣]، ففي سنة (٦٢٩هـ) انتشرت العساكر التترية في بلاد أذربيجان وما يقاربها، وأحدق خطرها بأركان الخلافة العباسية، عندها أحسّ الخليفة المستنصر بالله العباسي[٤] بالخطر، فأخرج الأموال، وجهز العساكر للدفاع عن أطراف الخلافة المهددة، ومساعدة صاحب إربل الذي طلب الى الخليفة أن يسرع في نجدته خوفاً من الجحافل المغولية التي اقتربت من بلده فسارت العساكر العباسية إلى إربل، التي كانت يومئذٍ من أملاك الخلافة العباسية[٥]، لقد كان لهذا الحدث العسكري صدى لدى الشعراء، وربما كان هذا الصدى أول شعر يلتفت إلى الوقائع المتعلقة بالغزو التتري، ويسجلها، إذ لم نعثر على شعر أقدم منه[٦] فقد سجل

عبدالمنعم رشاد، بحثه: الرعب الذي أحدثه الغزو المغولي، مجلة آداب الرافدين جامعة الموصل ١٩٧١، ع٢.

(٣) ينظر: نوري حمودي القيسي، بحثه: تقويم جديد لدور الأدب في العصور المتأخرة، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد ١٩٧٨، ع٢٢/ ٣٣، ٥١، ٥٤.

(٤) من وفيات سنة ٦٤٠هـ، ينظر ترجمته في: السيوطي: تاريخ الخلفاء، ط٤، القاهرة ١٩٦٩ / ٤٦٠.

(٥) ينظر: الحوادث الجامعة / ٢٧ _ ٣١.

(٦) ينظر: عبدالكريم العبود: الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد، دار الحرية، بغداد ١٩٧٦ / ١٥٣.

الشاعر عبدالحميد بن أبي الحديد[٧] الاستعدادات العسكرية للخليفة العباسي في هذه السنة بعدد من القصائد التي خصّ بها مدح الخليفة والتأكيد على كرمه وشجاعته وقوة بأسه، واصفاً خلال ذلك الاستعدادات العسكرية، وتوجه الجيوش من بغداد لمساعدة صاحب إربل، بنَفَس يطغى عليه الحماس والمبالغة والتفاعل. والأمل الكبير بالنصر، إذ يرى أن قتال المغول الوثنيين مظهر من مظاهر الجهاد في سبيل الله – تعالى- والدفاع عن الإسلام ضد أعدائه. ففي قصيدة يقدّم لها بقوله: "قصيدة عرضتها إلى الإمام المستنصر بالله قدّس الله روحه في عيد الفطر من سنة تسع وعشرين وستمائة، أذكر فيها التتار خذلهم الله، وما أطلقه – رضي الله عنه- من الاموال في تجهيز العساكر المنصورة إليهم، وأهنئه بالعيد المذكور"[٨].

ثم يقول فيها[٩]:

بدوام سعدك يحكم الدهرَ ... وبيمن جدك ينزل النصرُ

وبحسن نيتك الشريفة لا ... بؤس يلمّ بنا ولا ذعرُ

أراؤك الزّغف المضاعف والـ ... بيض الطريرة والقنا السمرُ[١٠]

وإذا طغى ياجوج مارقة ... فالسدّ أنت ومالك القطرُ[١١]

ولطيف فكرك جحفل لجب ... وشريف عزمك عسكر مجرُ

(٧) تنظر: موارد سيرته: الزركلي: الاعلام، ط٤، دار الملايين، بيروت ١٩٧٩، ٣/ ٢٨٩، أحمد الربيعي: العذيق النضيد بمصادر ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة، مط العاني، بغداد ١٩٨٧.

(٨) عبدالحميد أبي الحديد، المستنصريات، النسخة التي طبعها محمد الهاشمي البغدادي بمطبعة السلام ببغداد في مجلة اليقين ع١ سنة ١٩٢٢/ ٣٦٦.

(٩) تنظر القصيدة كاملة في: المستنصريات / ٣٦٦-٣٦٨.

(١٠) الزغف المضاعف: الدرع المحكمة التي ضوعف حلقها.

(١١) القطر: النحاس الذائب. وفي البيت إشارة إلى سد ياجوج الذي بناه ذو القرنين، كما ذكر القرآن الكريم في سورة: الكهف.

وإذا عصى فرعون في طـرف ... كنت الكليم وجيشك البحـرُ[١٢]
وعصاك عضب من مضاربـه ... يخبو الضلال ويبطل السحرُ
مهج العدى من سنخ جوهـره ... وكأنـها فـي متنـه أثـرُ[١٣]

بالقـائـم المنصـور مالـكنا ... تحمى البلاد ويحرس الثغـرُ
بالجوهر المحض الذي مضـر ... أصـدافه، ووجـوده الـدرُّ

وفي قصيدة أخرى قدّم لها بقوله: (وكتبت إليه قدّس الله روحه في غرّة شهر رمضان من السنة المذكورة، أهنئه وأذكر العساكر المنصورة، وتوجهها إلى حرب الجيوش التتارية خذلها الله ـ تعالى-)[١٤] نرى ابن أبي الحديد مبالغاً في وصفه للجيوش الذاهبة إلى إربل، إذ يقول[١٥]:

سدّ المذاهب بالجيوش على العدى ... فكبعد نيل علاه بعد المهـرب
بحـرمرم بالخافقيـن مخيـم ... وعلى درارىّ النجـوم مطنّـب
تتقاعس الأفلاك إن لم تنفطـر ... عنه، وتردى الشمس، إن لم تهرب
يخشى النواظر ضـوؤه فكأنـه ... شمّ شوامخ من حديـد أشـهب

---

(١٢) في البيت والذي يليه إشارة إلى قصة نبي الله موسى الملقب بالكليم مع سحرة فرعون، كما ذكر القرآن الكريم في سورتي: طه ، القصص.

(١٣) السنخ: أصل الشيء.

(١٤) المستنصريات / ٣٦٨.

(١٥) تنظر القصيدة كاملة في: المستنصريات/ ٣٦٨- ٣٧٠.

وكأنّما أسـيافه فـي عـارض وكأنّما راياتـه فـي كبكـبِ[١٦]

مستنصر بالله – لو شاء – اكـتفى بالعزم عن جيش يجرّ ومقنـبِ
نصر الهدى، وأحقّ من نصر الهدى من كان وارث شرعه والمنصـبِ
وحمى حريم محمـد مـن يلتقـي بمحمـدٍ خيـر البريـة بـالأبِ

لولاك لاغتـدت البـلاد مباحـة ولصال فيها الدهر صولة مغضبِ
ولشدّ جيش العسكر الشرقي أعـ راف الجياد بنخل أهل المغـرب
غضبتْ لدين الله بيضك فاجتـوت أغمادها، لاعزّ من لم يغضـبِ
وأبى الإباء المحض صبرك مغضبا والصبر أحياناً كريـه المشـربِ

قد جاءك النصر الشريف مبشـراً لك بالسعادة والمراد المخضـب
ومحـدثاً بالنصـر قبـل وقوعـه والبرق يـؤذن بالغمـام الصيّـبِ
والنصر مضمون الحصول بقولـه: "إن تنصروه"، والوعد غير مكذّبِ[١٧]

وتستمر روح الحماس والتفاعل والمبالغة لدى شاعرنا ابن أبي الحديد في مدحه وتمجيده للخليفة العباسي، ووصفه لعساكره المتوجهة نحو إربل لمواجهة الأخطار التترية الغاشمة، ولا عجب في ذلك، كما يرى أحد الدارسين[١٨] لان نفوس

(١٦) عارض وكبكب: جبلان، ينظر: الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٥٧، ج٤ / ٦٥، ٤٣٤.
(١٧) إشارة إلى قوله تعالى: (إن تنصروا الله ينصركم.../ الآية ٧ سورة: محمد)
(١٨) عبدالكريم العبود: الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد / ١٥٣.

القوم لم تكتوِ بعدُ بنار التتار المغول، فكان الأمل بالنصر كبيراً، ويغذي هذا الأمل شعور مستند إلى العدالة والحق. ففي قصيدة يقدّم لها بقوله: "وكتبت إليه من دار التشريفات الشريفة في النصف من شعبان سنة تسع وعشر بن وستمائة، أهنئه، وأذكر التتار، خذلهم الله ـ تعالى-"[١٩] فيقول مخاطباً الخليفة:[٢٠]

تغرّ التّرك[٢١] آمال طوالُ ... تشوق إليك أعماراً قصارا

أمانيّ النفوس تغرّ حتى ... تضرّ كخمرة جلبت خُمَّارا

بعثتَ إليهم حمر المنايا ... وبيض الهند والأسل الحرارا[٢٢]

وجيشاً لم يقد كسرى بن كسرى ... مماثلهُ ولا دارا بن دارا[٢٣]

ترقرقت الدموع فخيلَ ماءً ... وأومضت السيوف فخيل نارا

إذا ما زعزعت فيه العوالي ... ظننتَ لهنّ عند الشهب ثارا

ويضرب نقعه العالي رواقاً ... فتحسب ليلة البدر السِّرارا[٢٤]

خلعت به قلوب الشرك لما ... خلعت به على الدنيا إزارا

تخيّر أيّها المغرور منه ... فراراً أو هلاكاً أو أسارا

فكم بطل به بطلتْ قواه ... وجبار غدا دمه جبارا

---

(١٩) المستنصريات / ٤٢٦.

(٢٠) تنظر القصيدة كاملة في: المستنصريات / ٤٢٦ ـ ٤٢٧.

(٢١) الترك: يعني: التتار، لانهم جنس من الترك.

(٢٢) الاسل الحرار: الرماح العطاش.

(٢٣) دار بن دارا.. من ملوك الفرس القدامى، ينظر: الكامل في التاريخ ١/ ٢٨١.

(٢٤) السِّرار، بالكسر: الليلة التي يستتر فيها القمر، ينظر ابن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت ١٩٥٦، مادة: سرّ.

فلا زالت سيوفك يا ابن عم الـ ... نبّـي لكـل معركـة منـارا
يطبق ملكك الأرضين جمعـاً ... وتسكن بعض جيشك في بُخارا[٢٥]
وتغزي ما وراء النهر جيشـاً ... جعـلت لهـم بلا سـاقون دارا[٢٦]
وطمغاج[٢٧] التي عزّت وبزّت ... ملوك الأرض غصباً واقتسـارا
ولو حاولت بحر الصين صارت ... سـفائنه حجورك[٢٨] والمهـارا
إلى أن تصبح الدنيا ذراعـاً ... وكفّك فوق معصمها سـوارا

وفي سنة (٦٢٩هـ) أيضا جاء رسول من التتار إلى بغداد، فأخرج الخليفة العباسي العساكر لتلقيه واستعراض القوة أمامه، محاولة لإدخال الخوف في قلب الأعداء، وإشارا لهم باستعداد العراقيين على القتال، وهنا يسجل شاعرنا ابن أبي الحديد هذا الحدث أيضاً واصفاً الجيش الذي أخرجه الخليفة لتلقي الرسول، ومتخيلا ما أثاره في نفس الرسول من مشاعر الوجل والخوف، راكباً في ذلك كله صهوة التفاعل بالنصر والمبالغة في الوصف، ففي قصيدة يقدّم لها بقوله: "وكتبت إليه في شهر رجب من هذه السنة أمتدحه، وأذكر وصول الرسول الوارد من التتار خذلهم الله – تعالى- وإخراج العساكر المنصورة لتلقيه ومشاهدته لها"[٢٩] يقول فيها[٣٠]

---

(٢٥) بخارا: من اعظم مدن ما وراء النهر، ينظر: صفي الدين عبدالمؤمن: مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع، ط١، القاهرة ١٩٥٤، ١/ ١٦٩.

(٢٦) بلا ساغون: من البلدان في ثغور التتار، ينظر: معجم البلدان ٢١٩/٨.

(٢٧) طمغاج: بلاد التتار وموطنهم، ينظر: الكامل في التاريخ ١٢/ ٣٦١.

(٢٨) الحجور: إناث الخيل، ينظر: لسان العرب، مادة: حجر.

(٢٩) المستنصريات / ٣٧١.

(٣٠) تنظر القصيدة في: المستنصريات / ٣٧١ – ٣٧٢.

كلمـــا زادك الإلـه جـــــلالا ... زدت جوداً على الورى ونوالا
يا ابن عم النبي لا زالت الأقـ ... ـدار طوعاً لما تشـــاء عجـالا

ما رأى الناس قبل جيشك جيشاً ... ســال فرسـانه فخيل رمـــالا
فزّعت خيلـه الجبـال، إلـى أن ... كـاد من بأسـه يهـدّ الجبـالا

شـرق الأفق بالقســاطل منـه ... واشتكت ألسن الجبال الكـلالا
دوّخ الأرض بالسـنابك، حتـى ... زلزلـت مـن لطامـه زلزالا
وأتاك الرســول من ملك التّر ... ك يؤدي ضراعـــة وسـؤلا
مستظلاً بظل عفـوك يبـدى ... منطقاً خاشـعاً وخـدّاً هذالا
أعشت البيض عينه فهو لا ينـ ... ـظـر إلاّ أسـنّةً ونصـالا
كاثرته الرجـال حتـى رأى الآ ... فاق خيلاً مجنوبـة ورجـالا[٣١]
فهو في حضرة الخلافة يرجو الـ ... ـعفو من جودها، ويخشى النكالا
كلمـا عايـن المخـاوف نـادا ... هُ نـداها، فأمّـل الأ مـالا

منـذراً قومـه بمـا تقشـعرّ الـ ... ـعين منـه قـولاً، فكيف فعـالا
يا إمام الهدى ويا أشرف العـا ... لم ننعـا، وأظهـر الخلـق آلا
ثبـت الله دولـة بـل تـزدا ... ن، وملكاً منك استفاد الجمـالا
دمت حتى تنال خيلك من جيـ ... ـحون، والنيل مورداً ومنـالا[٣٢]

---

(٣١) الخيل المجنوبة: المعوّدة.

(٣٢) جيحون: من مدن خراسان، ينظر: معجم البلدان ٢/ ١٩٦.

جامعاً بين ملك طمغاج في الشر ق، ومراكش الطويل مطـــالا
ومضيفـاً إلى ظفـار وصنعـا ء عمـــاناً وفارســـا وأوالا[٣٣]
باعثاً نحـــوها جيـــاداً خفافـــاً ورجالاً لدى الحـروب ثقـــالا

ولا شك فـي أن المبالغات البعيدة كل البعد عن واقع الحال فـي مثل هذه النصوص هي من أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي آنذاك، فقد رام الشعراء من ورائها تأكيد الثقة وتجديدها بنفوس الناس التي أصابها الخوف والهلع والضعف كما رام الشعراء بهذا الأسلوب مواجهة المبالغات التي أطلقها الغزاة ضد شعوبنا، بيد ان هذه المبالغات الجامحة والبعيدة عن الواقع قد شاركت في تحذير وتضليل الناس الذين عرفوا الواقع المرير وتحسسوا النتيجة الخاسرة[٣٤]. إذ تتوالى الغارات التترية على المدن الإسلامية، وتندحر أمامهم مدينة إربل عام (٦٣٤هـ)، ويلحقها الخراب والدمار[٣٥]، عندئذٍ انتهت مرحلة التفاعل التي شاعت لدى الشعراء آنذاك، وبدأت مرحلة الخوف والوجل والذعر، فبنكبة إربل يهتز كيان ولدها مجدالدين النشابي[٣٦] الشاعر، الذي نشأ وترعرع في ربوعها الجميلة. فيسجلها بقصيدة في مدحه للوزير العباسي أحمد بن الناقد[٣٧]، يصف فيها حزنه العميق على مدينته التي

(٣٣) أوال: جزيرة بناحية البحرين، ينظر: معجم البلدان ١/ ١٧٤.

(٣٤) ينظر: تقويم جديد لدور الأدب في العصور المتأخرة.. / ٥٥ـ ٥٧.

(٣٥) ينظر: الحوادث الجامعة / ١٠٩ ـ ١١٣.

(٣٦) تنظر موارد سيرته في: ابن الشعار: عقود الجمان في شعراء الزمان، مصورة عن نسخة أسعد أفندي باستنبول، اللوحة ٢٦١ أ. وما بعدها. بحثنا للماجستير: ديوان النشابي، مجدالدين أسعد بن إبراهيم الاربلي (ت ٦٥٦هـ) كلية الآداب، جامعة الموصل ١٩٨٥.

(٣٧) من وفيات سنة (٦٤٢)، تنظر موارد سيرته في: الزركلي: الأعلام، دار صادر بيروت ١/ ٨٥.

أقفرت بعد أن وطأتها سنابل الخيول التترية، ويناشد الوزير المذكور أن يشمل هذه المدينة المنكوبة بعطفه ورحمته ورأيه السديد، وعزمه الشديد، يقول فيها:(٣٨)

ولم أبك إلا الدار أقفر ربعها ... وألقت عليها رحلها أمّ قشعم(٣٩)

سقي إربل الغراء صوب غمامة ... لعلّ ثراها بعد ما جفّ يرتمي(٤٠)

فيا أيّها المولى الوزير تعطفاً ... بإربل، واكشف ضرّها اليوم وارحم

فرأيك رأب الثلم في كلّ حادث ... وعزمك لمّ الشعب في كل مصدم(٤١)

بيد ان شاعرنا يدرك ضعف الوزير العباسي عن مناجزة الأعداء فيبد يحثه، ويدعوه للقتال، ويلزمه بمواصلة الجهاد، وعدم الاستكانة بعد أن أخذ على عاتقه مبدأ التأهب للجهاد في سبيل الله – تعالى، ولم يبق عذر للتقاعس بعد هذه الضربات الموجعة، فيقول:

ولا يوقفن ما قد جرى عزمك الذي ... متى يدع "حيزوماً" إلى النصر يقدم(٤٢)

وهذا جهاد أنت كافل نصره ... فقم فيه بالعزم المصمم، واحكم

---

(٣٨) تنظر القصيدة كاملة في، ديوانه / ٢٥٧ – ٢٦١.

(٣٩) أم قشعم: كناية عن المنية أو الحرب. وفي البيت نظر إلى قول: زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

فشدّ، ولم يُنظر بيوتاً كثيرة ... لدى حيث ألقت رحلها أمُّ قشعم

ينظر التبريزي: شرح القصائد العشر، تحـ: فخر الدين قِنّادة، بيروت ط٤، ١٩٨٠/ ١٨٩.

(٤٠) يرتمي: يسقى.

(٤١) الرأب: الاصلاح، الشّعب: الصدع والتفرد.

(٤٢) حيزوم: اسم فرس جبريل – عليه السلام – وفي البيت إقادة من قوله – صلى الله عليه وسلم: يوم بدر: "أقدم حيزوم" ينظر: ابن الاثير الجزري: النهاية في غريب الحديث، تحـ: طاهر الراوي وزميله، الطناحي، ط الأولى، القاهرة ١٩٦٣، ١/ ٤٦٧.

لإنـك أبدأت التأهـب للعـــدى ولـم يبـق عـذر للجهـاد فتمـم

وتتجلى أولى بوادر الخوف والرهبة من الغزاة بعد ضربهم لمدينة إربل، وذلك في دعوة الشاعر للصلح معهم، إن قبلوا بذلك، فيقول:

(وإن جنحوا للسلم فاجنح) وإن أبوا فبالسيف تسعى النفس قبل التندم[٤٣]

وإنـي لراج أن تـذل لك العـدى وأن تدع "جرماغون" للدين يسلم[٤٤]

وبهذا نلحظ أن النصر على الأعداء أصبح رجاءً مرتقباً، مما يدل دلالة واضحة على ضعف ثقة الناس بالخلفاء والوزراء والقادة العباسيين، وتظهر فداحة المصاب، وعظم الخسائر التي تمنى بها جيوش الخلافة العباسية على يد الغزاة في قصيدة حاول شاعرنا تقوية عزم الوزير العباسي المذكور، وحثه على التجمل بالصبر عند الواقعات التي عمت فوادحها، ويسوغ تأخرَ النصر المرجو بالقدر الذي يختار الموعد، فيقول[٤٥]:

فإن تأخر قصد أنت طالبـــه فسوف يأتي بما تختاره القـدرُ

وما يفوتك ما تبغيه من غـرض وبرق عزمك في أنيابه المطرُ

ما سبب الله هذا الغزو في زمن أنت الوزير به إلا له نظـــرُ

لإنه منحه ترجى جوائزهـــا يوما ترجّى به الحسنى وتدخرُ

لولا الجهاد لما أضحى النبي بـه في كل واقعة يعلو وينتصـــرُ

---

(٤٣) مابين القوسين الآية ٦١، سورة الأنفال.

(٤٤) جرماغون: من قواد التتار، ينظر: ابن أبي الحديد: شرح لهج البلاغة، تحـ: محمد أبي الفضل، ط الأولى، القاهرة ١٩٥٩، ٨/ ٢٢٦.

(٤٥) تنظر القصيدة في: ديوانه / ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

فالواقعات التي عمت فوادحهـــا | لولاك كادت قلوب الناس تنفطرُ
وكم طرى وجرى للناس وصم عنا | أضعاف ما نحن منه ثم ينجبـرُ

ويتجه النشابي إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله، بعد أن شعر بضعفه واستكانته، يحثه على مناجزة الأعداء – كما حث وزيره من قبل – ويلزمه بالجهاد الذي حان ميعاده، إن لم يكن قد تأخر، فيقول في قصيدة يمدحه بها:(٤٦)

أبا جعفر المنصور يا من ثباتـه | إذا راض رضوى رضّه مشمخرّه(٤٧)

خذ الشرك بالعزم الذي لو رمي به | ثبيرٌ، لأضحى في خراسان صخره(٤٨)
وإن كان في تأخير قهرك للعـدى | سريرة أمر، سوف يظهـر سـرّهُ

وإنك أدرى أيّ وقت تناجـز الـــ | عدو، وهذا الوقت قد حان قهـــره
فعنـدك جيش يمتلأ الجـو نتعـه | ويكرب وجه الأرض إن سار ذكره

وتصل الأخبار في شهر رجب من عام (٦٣٥هـ) – أي بعد عام من نكبة مدينة إربل – إلى الخليفة المستنصر بالله: أن العساكر المغولية قد اتجهت نحو بغداد، فيسود الخوف والقلق بين الناس(٤٩)، ويشعر الخليفة بضعفه، وعدم مقدرته على القتال، وبضرورة الوحدة الإسلامية، والتعاون لصد الأخطار الخارجية،

(٤٦) تنظر القصيدة في ديوانه / ٢٠٧ ـ ٢١٠.
(٤٧) الرض: الدق والكسر. المشمخر: الجبل العالي. رضوى: جبل بالمدينة، ينظر: معجم البلدان ٣/ ٥١.
(٤٨) ثبير: من اعظم جبال مكة، ينظر: معجم البلدان ٢/ ٧٢.
(٤٩) ينظر: الحوادث الجامعة / ١١١.

وينقدم الى الأمراء بطلب الخروج إلى ظاهر البلد، ويكاتب ملوك الأطراف يستنجدهم، ويعرفهم الحال[٥٠]، وهنا يقف شاعرنا النشابي، ونتيجة لإحساسه بمرارة الواقع الإسلامي المتمزق، وبجسامة الخطر المغولي، تصرخ الروح العربية في عروقه صرخة تمثل نموذجاً عالياً من نماذج الالتزام بالمواقف القومية التي ظهرت في تلك الفترة العصيبة[٥١] فيوجه نداءه إلى الساسة العرب المسلمين محذراً ومنذراً، ويدعو للوحدة العربية الإسلامية وجمع الكلمة لمواجهة الأخطار الداهمة، وحماية البلاد تحت راية الخليفة العباسي، فيقول في قصيدة له[٥٢]

قل للملوك: تيقظوا من نومكم ... هيهات ينفع الخطوب منامُ

فالشرك قد حامت بكم أطماعه ... والخطب صعب، والأمور عظامُ

هيهات لا يبقى لكم من غابر ... إن كان في إقدامكم إحجامُ

فاسعوا الى دار السلام، فإنها ... برد لكم من خوفكم وسلامُ

واحموا حريمكم بحفظ بلادكم ... فحياتكم بعد الحريم حرامُ

هذا أمير المؤمنين قد انتضى ... عزماً يفل الجيش وهو لهام[٥٣]

بذل النفائس للجهاد، وإنما ... يقوى على بذل النفوس كرام

وتقدمته نخوة عربية ... نبوية من شأنها الإقدام

---

(٥٠) ينظر: الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد / ٦١.

(٥١) ينظر: تقويم جديد لدور الادب في عصوره المتأخرة مجلة كلية الاداب، جامعة بغداد. ١٩٧٨، ع ٢٢/ ٤٧ـ٥٠.

(٥٢) تنظر القصيدة في ديوانه / ٢١٠ ـ ٢١٤.

(٥٣) يفل: يهزم. اللهام: الكثير.

فيرسل صاحب بعلبك ألف فارس، وصاحب دمشق ستمائة فارس[٥٤]، وهنا يعود شاعرنا النشابي ويسجل خبر وصول هذه العساكر في قصيدتي مدح للخليفة المستنصر بالله، يقول في الأولى:[٥٥]

وأتته عساكر الأرض من كل ... ل هزير سميدع معوان[٥٦]

تقطع البيد فوق كلّ أقب[٥٧] ... إن جرى، كان والصبا في عنان

تتهادى بكلّ رمح رديني ... يّ، وتهدي بكلّ عضب يماني[٥٨]

وتنادى باسم الخليفة من طو ... ل الفيافي، والأمعز الصوّان[٥٩]

فأجاب النداء بالجود، حتى ... جعل القفر سائل العذران

وفي الثانية، يصف أبطال هذه العساكر الوافدة إلى بغداد، فيقول:[٦٠]

وأتته أبطال العساكر تبتغي ... رزقا، ففاض عليهم الإنعامُ

ضاقت بهم فسح الرحاب، ولم تضق ... بغداد حين تآزر الأهضام[٦١]

لجأوا إلى الجيش المؤيد، فاغتدى ... حصناً لهم، يحميهم إن حاموا

من كل من رضعت مواضي عزمه ... درّ الحروب، وما استبان فطامُ

---

(٥٤) ينظر: الحوادث الجامعة / ١١١.

(٥٥) تنظر القصيدة في ديوانه / ١٢٧ ـ ١٣١.

(٥٦) الهزير: الأسد. السميدع: السيد الكريم والشجاع.

(٥٧) الأقب: ضامر البطن.

(٥٨) الرديني: الرماح. نهدي: تتقدم. العضب: السيف.

(٥٩) الأمعز الصوان: الأرض الحزنة الغليظة.

(٦٠) تنظر القصيدة في ديوانه / ٢١٠ ـ ٢١٤.

(٦١) تآزر: تغطى. الأهضام: الأراضي المطمئنة.

وتخرج هذه العساكر التي بلغت سبعة آلاف فارس تحت الراية العباسية، وتلتقي العساكر المغولية، وتؤوب بهزيمة واندحار[٦٢] عندئذٍ بشعر النشابي بمرارة الخيبة التي مني بها جيش الخليفة على يد الغزاة، فيحاول أن يخفف من أحزان ممدوحه، ويقوي عزيمته التي أصابها الوهن والضعف بقوله في قصيدة يمدحه بها[٦٣]:

ما أخرَ الله عن ذا الدين نصرته إلاّ ليظهر بعد البأس قدرتـه
كذا عوائده، يقضي بعسرته يوماً، يعقبها في الحال يسرته

ثم يحثه على التجمل بالصبر عند الملمات، ويضرب له مثلاً من جهاد الرسول – صلى الله عليه وسلم، وصبره على أذى المشركين في معركتي بدر وأحد، ولابد لشاعرنا النشابي في تصويره لهذه الكارثة التي حلّت بالمسلمين، أن يجنح إلى التراث الديني، يقتبس منه ما يعد المسلمين بالانتصار والبقاء، فالخليفة عباسي قرشي، وقريش، كما ورد في الحديث الشريف: (ولاة الناس في الخير والشر إلى يوم القيامة)[٦٤]، ليبعث شيئاً من الطمأنينة في النفوس التي خيم عليها الخوف والرعب والقلق، فيقول:

وكيف يهمل ديناً منه منشؤه وكان فاطر قبل الكون فطرته
لكن ليبلو صبر الصابرين بما يبلى، فيعقب حسناه بليته
ما العار فيما رمى الله العباد به وحكمه نافذ فيهم مشيئته

---

(٦٢) تنظر: الحوادث الجامعة / ١٠٩ _ ١١٣.

(٦٣) تنظر القصيدة في: ديوانه / ١٣٨ _ ١٤٠.

(٦٤) الترمذي: سنن الترمذي، ط الثانية، بيروت ١٩٧٤، ٣/ ٣٤٢.

ولا يعاب رسول الله، إذ كسر الـــ ... كفار في الحرب عدوانا ثنيتـــه[٦٥]

وقـام ليلـة بـدر يستغيث إلـى ... أن أسقط الخوف والإرعاد بردته

وكـم بتدبيـره داري ودار إلـى ... أن مكّـن الله بالتأييـد حوزتـه

ولـم يـزل بعـده يقفـو خلائقـه ... اثاره، وتـزى بالصـبر أثرتـه[٦٦]

والوعد بالنصر بعد الصبر منتظـر ... والبغي مصـرعه يرتـاد ردتـه

فأي بأسٍ، وهذا البيت قد قـرن اللـــــه العزيـز بيـوم الحشـر مدتـه

وفي الحديث روينا: أن ملك بني الـ ... عباس لا تخلـق الأيـام جدتـه

وتمضي الأيام، والغارات المغولية تزداد شراسة على أطراف الخلافة العباسية، وتفاقم ذلك بعد أن آلت الامور إلى الخليفة المستعصم بالله العباسي[٦٧]، الذي سلّم زمامها إلى وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي[٦٨]، وانغمس مع حاشيته في ملذات الحياة والمصالح الخاصة، وأهمل حال الجند، ومنعهم أرزاقهم، وأسقط أكثرهم من ديوان العرض، فآلت أحوالهم إلى سؤال الناس، وساءت أحوال البلاد، فانطلق الشعراء يحذرون وينذرون الخليفة من وقوع الكارثة[٦٩]، فكانت للنشابي صرخة مدوية، وتصوير صادق لتلك الحال المتدهورة، فيقول: [٧٠]

---

(٦٥) الثنايا: اسنان مقدم الفم.

(٦٦) الأثرة: المكرمة.

(٦٧) تنظر موارد سيرته في تاريخ الخلفاء / ٤٦٤: الأعلام ٤ / ٢٨٤.

(٦٨) تنظر موارد سيرته في: الأعلام ٩/ ٣٣٠.

(٦٩) تنظر: الحوادث الجامعة / ٣١٩.

(٧٠) تنظر القصيدة في ديوانه/ ٣٠٧ ـ ٣٠٩.

يا سائلي ولمحض الحق يرتاد أصخ فعندي نشدان وإنشادُ
واسمع فعندي روايات تحققها دراية وأحاديث وإســـنادَ
فهم ذكي، وقلب حاذق يقـــظ وخاطر لنفوذ النقد نقـــادَ

وبعد هذه المقدمة، يأخذ في تقرير ووصف الحالة المزريـة التـي انتـهت اليـها الامـور، مبينـا حـال ساسـة بغداد، وأولـي الأمـر فيـها، ومـا كـانوا فيـه مـن الغفلـة والانغماس في الشهوات، فيقول:

عن فتيةٍ فتكوا في الدين وانتهكـوا حماه جهـلاً بـرأي فيـه إفسـادُ
إذا ترامت أمور الناس ليس لهـم فيهـا رواء ولاحـزم وإنجـادُ
أمّا الوزيـر فمشـغول بغيـره والعارضـان فنسّـاج ومـدادُ(٧١)
وحاجب الباب طوراً شارب ثمـل وتـارة هـو جنكـيّ وعـوّادُ(٧٢)
ومشرف الدّست مُغرى باللّواط له فـي كـل ناحيـة عِلـق وقـوادُ
وشيخ الإسلام صدر الدين همتـه مقصورة لحطـام المـال يصطـادُ(٧٣)
نمتـه في اللـؤم آبـاء سواسـية ما سودوا في الورى يوماً ولا سادوا

وبعد ان يسمي العناصر التي كانت سبباً مباشراً في تدهور الخلافـة، يفـزع إلى العامل النفسي، فيلتجئ إلـى حمـى الرسـول صلـى الله عليـه وسلم، يبثـه حزنـه

(٧١) العارض: رئيس ديوان عرض الجند.

(٧٢) الجنك: آلة للطرب، معرب.

(٧٣) شيخ الاسلام: شيخ الشيوخ، أبو المظفر صد الدين علـي بـن البتـار، ينظـر: الحـوادث الجامعـة/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

وشكواه، متمنياً الموت قبل وقوع الكارثة التي تنبأ بها لبغداد، ولذلك فقد رثى شاعرنا النشابي الخلافة العباسية قبل سقوطها، فيقول:

إن جئت يثرب أو شارفت ساحتها فقل لمن أنزلت في حقه صادُ[٧٤]

الكفر أضرم في الاسلام جذوتـــه وليس يرجى لنار الكفر إخمادُ

واضعيه الملك والدين الحنيف وما تلقاه من حادثات الدهر بغـدادُ

هتك وقتل، وأحداث يشيب بهـــا رأس الوليد، وتعذيب وإصفـادُ

أين المنيـة مني كـي تساورنـي فللمنيـة إصـدار وايـرادُ

من قبل واقعـة شنعـاء مظلمـة يشيب من هولها طفل وأكبـادُ

وبهذا فقد اختلط في فكر شاعرنا النشابي شعوران متباينان: النقد المرّ، واليأس الغالب، كيف لا؟ وقد أصبحت العساكر المغولية على أبواب بغداد، وذهبت كلّ الصرخات المحذرة من وقوع الكارثة أدراج الرياح، وسقطت بغداد سنة (٦٥٦هـ) سقوطها المريع. بعد أن كانت مركز إشعاع ومنطلق حضارة، ومرتكز ثقافة إنسانية زاخرة، واندحرت العساكر العربية بعد أن كانت أصداء فتوحها تستحوذ على أجزاء كبيرة من التاريخ، فاهتزت النفوس لهذه النكبة، وأدركت المأساة، ففاضت ألماً وحسرة، وتساقطت لوعة، وبكاءً، وكأنها تريد التعبير عن الوفاء للأرض التي عرفت وجود هذا الإنسان والحب لهذه الجموع التي تساقطت في أروقة بغداد، وبين أسوارها الحزينة[٧٥]، ولابد أن يكون الألم حاداً والإحساس

(٧٤) أشارة الى الآية الكريمة: (ص والقرآن ذي الذكر) السورة ٣٨.

(٧٥) تنظر: تقويم جديد لدور الأدب في العصور المتأخرة.../ ٦٩.

مريرا لدى شاعرنا شمس الدين الكوفي[٧٦] الذي شهد المأساة بأمّ عينيه، ووقف مذهولاً أمام بغداد، تلك الأم الرؤوم الروحية للعالم الإسلامي، فتعطلت لديه كلّ اللغات إلا لغة الدموع الساخنة تتحرك في دمه أبياتاً وأناشيد وترانيم محزنة، فمن تلك الترانيم هذه القصيدة الرثائية الطافحة بمشاعر الحزن والوحشة، ولواعج الشوق وآلام الفراق، يقول فيها:[٧٧]

بانوا ولي أدمع في الخدّ تشتبكُ ... ولوعة في مجال الصدر تعتركَ
بالرغم لا برضا مني فراقهم ... ساروا ولم أدرِ أي الارض قد سلكوا
ياصاحبي ما احتيالي بعد بعدهم ... أشرْ علي، فإن الرأي مشتركُ
عزّ اللقاء وضاقت دونه حيلي ... فالقلب في أمره حيران مرتبك
يعوقني عن مرادي مابليت به ... كما يعوق جناحي طائر شركُ
أروم صبراً، وقلبي لايطاوعني ... وكيف ينهض من قد خانه الوركُ
إن كنت فاقد إلف نحْ عليه معي ... فإننا كلنا في ذاك نشترك

يا نكبة ما نجا من صرفها أحد ... من الورى ، فاستوى المملوك والملكُ
تمكنت بعد عز في أحبتنا ... أيدي الأعادي، فما أبقوا ولا تركوا
لو أن ما نالهم يفدى فديتهم ... بمهجتي وبما أصبحت أمتلك
ربع الهداية أضحى بعد بعدهم ... معطّلاً، ودم الاسلام منسفك

ابن الذين على كل الورى حكموا ... اين الذين اقتنوا؟ أين الألى ملكوا؟

(٧٦) تنظر سيرته في: الحوادث الجامعة / ٣٣٤، عقود الجمان... لوحة ٢٨٩.

(٧٧) تنظر القصيدة كاملة في: الحوادث الجامعة / ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

وقفت من بعدهم في الدار أسألـــها عنهم، وعما حووا فيها وما ملكـــوا
أجابني الطلل البالي وربعهـم الـــ خالي: نعم هاهنا كانوا وقد هلكـــوا

وله ترنيمة أخرى، لا تقل عن سابقتها صدقاً وعاطفة وألماً ولوعة وبكاءً وحسرة تعبر عن وفاء أصيل لموطن الأمجاد والنور بغداد العروبة والإسلام، يقول فيها(٧٨):

عنـــدي لأجـــل فراقكـم آلامُ فـــإلام أعـــذر فيكـــم وآلامُ
من كان مثلي للحبيب مفارقـــاً لا تعذلـوه، فالكـــلام كـــلامُ
نعم المساعد دمعي الجاري علي خـــــدّي إلا أنـــه تمّـــام
وندبب روحي نوح كل حمامـــة فكأنما نـوح الحمـام حمـامُ
إن كنت مثلي للأحبـــة فاقـــداً أو في فؤادك لوعة وغـرام
قف في ديار الظاعنين ونادهـــا (يا دار ما فعلت بك الأيـام) (٧٩)
يـا دار أيـــن الســـاكنون؟ وأيـن ذيّـــــاكَ البهـاء، وذلك الأعظـام؟
يا دار أين زمان ربعك مونقـــاً وشعارك الإجلال والإكـرامُ؟
يا دار قد أفلتْ نجومك عمّتـــا والله من بعد الضياء ظـلامُ
فلبعدهم قرب الردى، ولفقدهـــم فُقد الهدى: وتزلزل الاسـلامُ
فمتى قبلت من الأعادي ساكنـــاً بعد الأحبة لاسقاك عَمـــامُ

---

(٧٨) تنظر القصيدة كاملة في: الكبتي: فوات الوفيات، تحـ: محمد محي الدين عبدالحميد، مصر، ١/ ٤٩٧.

(٧٩) ما بين الأقواس شطر بيت لأبي نواس، تمامه: ضامنك والأيام ليس تضامُ
ينظر: ديوان ابي نواس، تحـ: الغزالي، بيروت، / ٤٠٧.

يا ساداتي أمّـا الفـؤاد فشيـــق ... قلق، وأما أدمعـــي فســجامُ
والدار قد عدمت جمال وجوهكم ... لم يبق في ذاك المقام مقـــامُ
لاحظّ فيها للعيون، وليس للـــ ... أقدام، في عرصاتها إقـــدامُ

وحياتكم إني على عهد الهـــدى ... باق، ولم يخفر لديّ ذمـــامُ
فدمي حلال إن أردت سواكـــم ... والعيش بعدكم عليّ حـــرامُ
يا غائبين وفي الفؤاد لبعدهـــم ... نارٌ لها بين الضلوع ضـرام
لا كتْبكم تأتي ولا أخباركـــم ... تروى، ولا تدنيكم الاحـــلامُ[٨٠]

يا ليت شعري كيف حال أحبتي ... وبأيّ أرض خيموا وأقامـوا

وللكوفي ترنيمة نونية حزينة أخرى، صادرة عن نفس أثقل كاهلها ألم الفراق، ولواعج الشوق، وأسقمها الحزن العميق على ما حلّ بالأهل والوطن، فيقول[٨١]:

إن لم تقرح أدمعي أجفانـــي ... من بعد بعدكم فما أجفانـــي
إنسان عيني مذ تناءت داركم ... ما راقه نظر إلى إنســـان[٨٢]
ياليتني قدمتّ قبل فراقكـــم ... ولساعة التوديع لا أحيانـــي
مالي وللأيام شتت شملُـــها ... شملي، وخلاّني بلا خـلان؟

---

(٨٠) سكن التاء في كتْبكم، لإقامة الوزن.

(٨١) تنظر القصيدة في: فوات الوفيات ١/ ٤٩٩ ـ ٥٠١.

(٨٢) إنسان العين: بؤبؤ العين.

ما للمنازل أصبحت لا أهلـها | أهلي ولا جيرانها جيرانـي؟
وحياتكم ما حلّها من بعدكـم | غير البلى والهدم والنيـران.

ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم | ووقفت فيها وقفة الحيـران.
وسـألتها لكن بغيـر تكلـم | فتكلمت لكن بغيـر لسـان.
أين الذين عهدتهـم ولعزّهـم | ذلا تخر معاقد التيجـان؟
كانوا نجوم من اقتدى، فعليهم | يبكي الهدى وشعائر الإيمـان.
قالت: غدوا لمّا تبدد شملهـم | وتبدلوا من عزّهم بهـوان.

إلى آخر القصيدة في أصواتها الحزينة الباكية، وصورها اليائسة البائسة، فشاعرنا شهد مأساة بغداد، وما حلّ بها من خراب ودمار بعد عزّها وشموخها، فلا غرابة أن يرتفع في شعره صدى البكاء والعويل، وتظهر في صوره لوحات الموت والخراب والبؤس والدمار، فقد فوجئ بغياب الخلافة العباسية، وانهيار بغداد العاصمة التي استظل بها العرب المسلمون قرونا طويلة، وصدمه مجيء الغرباء المتوحشين يتحكمون بأبناء جلدته ظلما وعدوانا، فاهتز كيانه، وخرج عن طور حياته بلغة الأسى والبكاء والحزن العميق بأبلغ صورة، وأصدق مشهد، من شأنه أن يلفت النظر إلى صفحة من صفحات تاريخ امتنا، ويسهم في إلقاء الضوء على الحاضر القريب من خلال الوقوف على أحداث الماضي البعيد، ليعرف أبناء هذه الأمة أن الحاقدين على أمتهم قد تكالبوا عليها من قبل كما يتكالبون اليوم.